عرفت هؤلاء

بقلم :
انور السادات

على خريطة مصر توجد قرية صغيرة اسمها دمرو .. قابلت فيها سائق لورى يجسد روح مصر فى اصالتها .. وفى كرمها .. وفى سماحتها .. وفى روح العائلة التى بدونها نفقد كل شىء .

سائق من دمرو

لأول

وهلة ستتعجب عندما تقرأ هذا العنوان «سائق من دمرو» .. ! وستتساءل من هو هذا السائق ؟ ! .. واين هى «دمرو» ؟ !

ولكن .. عندما اروى لك قصتى مع هذا السائق .. وهذه القرية الصغيرة القائمة بالقرب من المحلة الكبرى .. ستنتهى حيرتك .. وستتعرف معى على هذا السائق الذى يجسد كل ما فى الفلاح المصرى من اصالة واخلاق كريمة ..

ولابد – قبل ان ابدأ قصتى مع سائق دمرو – ان اعود الى شهر ديسمبر ١٩٤٤ . فقبل هذا الشهر بالذات وقعت احداث هامة فى حياتى ..

ففى هذا الوقت كنت فى معتقل الزيتون .. فقد اعتقلتنى حكومة ٤ فبراير ١٩٤٢ التى ارغم السفير البريطانى الملك فاروق على قبولها بعد ان حاصر قصر عابدين بالدبابات .. وقد امتهنت بريطانيا فى هذا اليوم كرامة مصر .. كما دخل الحزن فى قلب كل مواطن مصرى مخلص وكل مشتغل بالعمل السياسى عندما راى النهاية المؤلمة التى وصل اليها حزب الاغلبية والتنازلات الخطيرة التى فرط فيها رئيس الحزب للملك وللانجليز .

وزاد من اشتعال الموقف دخول امين عثمان الوزارة .. الذى كان يمثل قمة الخيانة لمصر .. وكان اكبر عميل للانجليز وكانوا يعدونه ليكون رئيسا للوزراء لدرجة انه انشأ حزبا اسماه «رابطة النهضة» المبدأ الثانى له ان العلاقة بين مصر وبريطانيا علاقة ابدية لا تنفصم اشبه بالزواج الكاثوليكى ! لذلك حكم عليه الوطنيون بالموت نظير خيانته .. وفعلا تم التخلص منه ..

وكما جاء الانجليز بحكومة ٤ فبراير ١٩٤٢ .. وافقوا ايضا على اقالتها فى ٨ اكتوبر ١٩٤٤ .. فلم يكن هناك حياة سياسية فى مصر .. ولم يكن هناك دستور محترم .. فالجميع .. الملك والاحزاب والباشوات والانجليز لا يحترمون الدستور .. والمسألة كانت اشبه ما تكون بعصابة مسيطرة على الحياة السياسية .. وراس هذه العصابة المندوب السامى البريطانى الموجود فى السفارة البريطانية او قصر الدوبارة .. !

وما يحدث فى الخارج ينعكس اثره فورا داخل المعتقل .. فعندما جاءت وزارة ٤ فبراير عام ١٩٤٢ اطلقت سراح اعضاء حزب الوفد الذين كانوا معتقلين .. وادخلت المعتقلات اعضاء الاحزاب الاخرى من السعديين والاحرار والكتلة وغيرهم . وعندما اقال الملك هذه الوزارة فى ٨ اكتوبر ١٩٤٤ افرج عن كل هؤلاء المعتقلين ومن ضمنهم وكيل وزارة الداخلية السابق الذى امره رئيس الوزراء الجديد احمد ماهر بان يترك المعتقل ويذهب فورا الى مكتبه لا الى منزله .. والسبب انه كان خبيرا فى الانتخابات !!

ولم يبق فى المعتقل الا انا .. وسألت المسئولين عن السبب فى عدم الافراج عنى ؟ .. وكان ردهم الغريب البريطانيه ولا تستطيع الحكومة المصرية الافراج عنك» .. !!

عندما سمعت هذا الرد .. قلت لنفسى «مافيش فايده» .. اننى اعتقلت بأوامر من السلطة البريطانية تنفيذا لقانون الاحكام العسكرية المفروض نظرا لحالة الحرب .. وان الحرب وان كانت بوادرها فى اواخر عام ٤٤ انها ستنتهى لصالح الحلفاء الا ان اليابان تستطيع ان تقاوم لفترة طويلة قد تمتد الى عشرين عاما .. لان حروب الغابات والاحراش تساعد على ذلك .. وفعلا لولا القنبلتان الذريتان ما انتهت الحرب بهذه السرعة ..

لذلك قررت الاضراب عن الطعام .. وبعد اربعة ايام – حسب القواعد والقانون وضعت تحت الاشراف الطبى ونقلت الى مستشفى قصر العينى الجديد .. حيث عدلت من الاضراب ووضعت خطة هروبى ..

وكانت خطة هروبى بسيطة جدا .. اتفقت مع زميل لى ان يحضر سيارة صغيرة .. وكانت ماركة اوستن من مخلفات الجيش الانجليزى اشتراها بخمسين جنيها .. وان ينتظرنى فى منطقة سيارات الاطباء فى اليوم المحدد الساعة ١١ صباحا وان يترك موتور السيارة دائرا .. وفى نفس الوقت جعلت العسكرى المكلف باصطحابى اثناء نزهتى اليومية يطمئن لى خصوصا عندما اختفى من امام عينيه لعدة دقائق .. ثم اعود .. وهكذا ..

وفى اليوم المحدد .. خرجت فى نزهتى اليومية مع العسكرى .. وكالعادة لم يهتم عندما اختفيت من امامه .. وذهبت فورا الى منطقة السيارات حيث وجدت زميلى فى السيارة .. فركبت بجانبه وتحرك هو بهدوء حيث خرج بالسيارة من الباب اثناء زحام الخارجين والداخلين لقصر العينى ..

وككل شىء فى الحياة .. هناك جانب مشرق وجانب مظلم .. الجانب المشرق لهروبى انه كان تحديا وانتصارا على ارادة الانجليز وبريطانيا العظمى لا انتصارا على دولتى لأنه اتضح انه ليس لها اى دخل بحراستى .. احسست بذنب تجاهه .. لكننى لم اتركه .. فبعد قيام الثورة مباشرة بحثت عنه فوجدت انه قد توفى .. وبعد ذلك قابلت ابنه الذى اصبح مدرسا .. ما شاء الله ..

بعد هروبى من المعتقل اضطررت الى العمل .. فقد كنت «تحت خط الصفر فى الفقر» وفى نفس الوقت مسئولا عن عائلة .. ولم يتبق شىء من المكافأة التى صرفها اهلى بعد ترك الخدمة وقدرها ٨٠ جنيها .. فعرض على صديقى الذى اشترك معى فى عملية الهروب ان اعمل معه على سيارة لورى قديمة ماركة فورد .. وكان للسيارة سائق فاشتغلت شيالا .. ولبست الجلابية البلدى واطلقت لحيتى وغيرت اسمى الى «الحاج محمد نور الدين»

وفى يوم من ايام شهر ديسمبر ١٩٤٤ ذهبنا كالعادة الى شارع الازهر وكان سوقا تتجمع فيه سيارات النقل ومكاتب النقل .. وهناك طلب منا ان نقوم بنقلة اسمنت حمولتها ٣ اطنان الى بلدة بشبيش بجوار المحلة الكبرى .. لبناء وحدة حكومية بها .. وبدأت الرحلة من القاهرة بعد المغرب وكان مفروضا ان نصل الى القرية قبل منتصف الليل فالمسافة من مصر الى طنطا لن تزيد عن ساعتين ومن طنطا الى المحلة الكبرى وبشبيش لن تزيد عن ساعة .

ولكن .. هذه الرحلة التى لم يكن من المفروض ان تستغرق اكثر من ساعتين .. استغرقت ٤٨ ساعة كاملة ..

فقد تصادف فى هذا اليوم ان حدثت ظاهرة لم تر مصر مثيلا لها منذ اكثر من خمسين عاما قبلها .. وهى نزول المطر المستمر على هيئة رذاذ لمدة ثلاثة ايام متتالية .. ومعنى ذلك ان الطرق الترابية بين القرى اصبحت مشكلة ومن المستحيل معها التحكم فى عجلة القيادة ..

مغلق الى طنطا تحت الاصلاح فاضطررنا الى تحويل اتجاهنا الى طريق السنطة لتاخذ الطريق الترابى من الذى يمر بالسنطة الى طنطا .. وبعد مشاكل واهوال من الطريق ومن السيارة القديمة ومن المطر وصلنا طنطا فى الفجر .. وكنا نريد ان ننام .. فاحتمينا من المطر باحد الكبارى واستغرقنا فى النوم ..

وفى الصباح اتجهنا من طنطا الى المحلة الكبرى .. وهو طريق لا يزيد طوله من ٢٥ كيلو مترا تقطعه السيارة فى العادة فى نصف ساعة .. ولكن نظرا لظروف المطر وتحول الطريق الى مثل «الصابون» سرنا بالسيارة ببطء شديد مما ادى الى سخونة الموتور ونفاد الزيت منه .. فتوقفنا فى الطريق حتى ذهب السائق فى سيارة اخرى واحضر علبة زيت .. وبقيت انا فوق الحمولة ومن شدة تعبى استغرقت فى النوم بدون غطاء فى عز الشتاء ولم اراع اننى مصاب – مثل اى فلاح مصرى – بالدوسنتريا

وفى المحلة الكبرى التى وصلنا إليها عند المغرب اقترحت على زميلى السائق ان نذهب لتناول وجبة ساخنة .. فقد تعلمت فى الجيش ان الوجبة الساخنة تعطى للجنود الصحة والحيوية وترفع من روحهم المعنوية .. فدخلنا الى «مسيمط» حيث اكلنا لحمة راس وكرشة .. وبعد ان اكلنا سألنا عن الطريق الى بشبيش ثم اتجهنا اليها لاننا نريد ان نصل اليها بسرعة حتى لا نحمل الحمولة على الكاوتش ليلتين .. فالكاوتش فى تلك الوقت واثناء الحرب يباع فى السوق السوداء باغلى الاسعار .

ومرة اخرى ما ان خرجنا من المحلة وتركنا طرقها المسفلتة الى الطريق الزراعى صوب هدفنا وهو قرية بشبيش حتى بدأت المعاناة مرة اخرى على الطريق الزراعى بأسوأ مما كان على طريق السنطة .. وفى منتصف الطريق بين المحلة وبشبيش لاحت لنا قرية صغيرة على الطريق وكان التعب والبرد والمعاناة قد بلغت بنا منتهاها فاقترحت على زميلى السائق ان نبيت فى هذه القرية واحتج زميلى السائق باننا لن نجد مأوى او كوبرى يحمينا من المطر كذلك الذى نمنا تحت كابينة العربة تحته فى طنطا فقلت له اصبر حتى ندخل اولا هذه القرية ثم نرى ما يكون وعلى كل حال فان القرية عندى افضل من المدينة ..

ووافق على مضض ..

ودخلنا الى القرية .. ووجدنا طريقا رئيسيا يشق القرية امامنا بالعرض ووقفنا هل نتجه يمينا ام يسارا . وبينما نحن فى حيرتنا هذه اذا بمواطن من اهل القرية يقبل علينا ويسأل عن وجهتنا . . فسألناه اولا عن هذه القرية فقال ان اسمها دمرو وقدم لنا نفسه على انه سائق وان احد جيرانه كان عائدا من المحلة ورأى معاناتنا على الطريق فلما دخلنا القرية سعى هذا الجار اليه لكى يخرج الى مساعدتنا فقام فى الحال الى مدخل القرية حيث وجدنا واقفين .

واخبرنا زميلنا سواق دمرو باختصار بما جرى لنا منذ خروجنا من مصر حتى وصولنا الى دمرو ورغبتنا فى ان نمضى الليلة هنا بعد ان نال منا التعب والمعاناة وسألناه عن بشبيش فأمن على قرارنا وقال انه كان من المستحيل ان تصلوا الليلة الى بشبيش برغم قربها بسبب الطريق .

وبكل تلقائية واصالة قال لنا الرجل انتم ضيوفى الليلة ..

ولم ينتظر ان نرفض او نوافق وانما انطلق يباشر مسئوليته فطلب منا ان نتجه يسارا لكى نترك العربة امام دوار العمدة فهو المكان الآمن .

ووجدنا انفسنا انا والسائق نستجيب له بلا مناقشة . ولما اطمأن بعد ان اوصى الغفير اتجه الينا لنتبعه الى بيته وكان فى الناحية الاخرى من القرية .

وكان البيت مثل اى بيت فى اى قرية مصرية .. وما أن دخلنا حتى طلب الى زوجته اعداد العشاء والشاى .

ومرة اخرى باشر مسئوليته فرفض كل ما حاولنا به ان نؤكد له اننا تناولنا العشاء فى المسمط فى المحلة .

واضطررت ان اتناول العشاء للمرة الثانية ومعدتى قد تحركت فيها الدوسنتاريا بفعل البرد والاجهاد والكرشة وام الشلاتيت .

وما أن انتهينا من العشاء حتى جاء الشاى ثم خرج ليحدث زوجته على باب القاعة التى كنا نجلس فيها .

والقاعة فى الفلاحين ليست الهول كما هو فى البندر والمدن وانما الغرف التى فى الدور ان يكون فيها فرن ولكنه لا شبابيك لها وانما فتحه مستديرة صغيرة فى الحائط قرب السقف لتصريف الدخان عندما يحمى الفرن اى يستعمل . وسمعنا زوجته تسأله هل يريد شيئا قبل خروجها فاخبرها ان تبكر فى العودة فى الصباح لاعداد الافطار والشاى

لقد كان الحديث بين الرجل وزوجته كما اخبرنا وكما سمعناهما لانهما كانا يتكلمان ايضا بتلقائية انها ستقضى الليل فى بيت اهلها اى عائلتها لان القاعة التى نجلس فيها هى كل ما فى البيت من غرف وامامها بيت الراحة (اى الكابينه) بلغة اهل المدن والفرن والكانون فى الفناء .

ولم يكن هناك فائدة من ان نحتج لان الرجل لم يشعر انه يفعل شيئا غير عادى او ان وجودنا وضيافتنا قد اجبرت زوجته على قضاء الليل خارج بيتها . كان الرجل صادقا مع نفسه ومع قيمه ..

وكانت الزوجة ايضا متفانية فى تنفيذ ارادة زوجها لان هذا هو الواجب وغيره يكون عيب ..

هذه هى قيم مصر التى تصونها القرية منذ الاف السنين وستظل ترعاها القرية مهما انحرفت بها المدينة او حاول ان يعصف بها بعض الادعياء ..

ما أن تناولنا الدور الثانى من الشاى حتى بدأ التعب يحل وتهيأنا نحن الثلاثة للنوم السائق وانا ومضيفنا ..

وما ان تمددت على الحصيرة طبعا وبدأت الف نفسى بالغطاء حتى تحركت الدوسنتاريا على صورة تعنى شديد ..

وبدأت اخرج الى بيت الراحة واعود الى القاعة لكى اجرى اليه مسرعا مرة اخرى هذا برغم المغص الشديد والشعور بالهبوط العام ..

انها طبعا الكرشة وام الشلاتيت بالذات ثم تناول عشاء اخر وهو ما يجهد المعدة فى مثل هذه النوبات الدوسنتارية ..

وظل مضيفى يحاول ان يخفف عنى ، أما السائق فقد استغرق فى النوم لحظة ان مدد جسمه .. كانت ليلة لن انساها ..

وفى الصباح حضرت زوجة السائق .. وقدمت لنا الافطار والشاى .. وعرض علينا البقاء يوما اخر حتى اشفى تماما من الازمة واعوض الليلة التى سهرت فيها .. وكان ودودا معنا .. ولم يشعرنا بانه يتفضل علينا بشىء . وبذل كل ما فى وسعه لنحس ان ما يفعله معنا هو الواجب والطبيعى ..

وعندما احس اننا نريد ان نرد له بعض الجميل او ان نشكره .. قال لنا معاتبا : «هل هذا يصح ياحاج محمد ؟ ! . احنا ولاد كار واحد ومهنتنا واحدة والناس بعض»

ولم يتركنا الا بعد ان اطمأن على السيارة والحمولة وعلينا .. وان الطريق اصبح صالحا نوعا للسير فيه بالسيارة وودعنا متمنيا لنا السلامة ..

وسرنا بهدوء شديد من دمرو الى بشبيش .. لان الطريق كان مازال مبتلا .. وعندما وصلنا الى مكان الوحدة التى تقوم الحكومة ببنائها نزلت وفى يدى البوالص والاوراق .. وسألت عن المسئول حتى يتسلم الاسمنت ويوقع على الاوراق بما يفيد ذلك لان الاجرة لا تدفع الا بعد توصيل ايصال الاستلام الى مكتب القاهرة .. ولكن قيل لنا ان «الافندى» لم يحضر بعد ..

وبعد فترة من الانتظار .. حضر «الافندى» وطلبت منه ان يوقع على الاوراق .. فنظر لى من فوق لتحت وقال لى بكلمات مسترخية ممطوطة : «انت مستعجل على ايه يا اخى ؟ ! . الدنيا طارت ؟ ! . وعلى فكرة انت اسمك ايه ؟ ! قلت له : اسمى الحاج محمد نور الدين .. فقال الافندى «اجلس واحكى لنا عما شاهدته فى الحج واحكى لنا ايضا عن الطريق الى الرسول ورابغ لان قريبى الذى حج فى العام الماضى حكى لى الكثير عنها» ..

واسقط فى يدى .. هانا لم اكن حتى ذلك الوقت قد حججت .. ولا اعرف شيئا عن رابغ وعرفت فيما بعد انها قرية بين مكة والمدينة ...

ولم يكن هناك بد من ان احكى اى شىء ...

ولم اجد شيئا اقوله الا ما سمعته من اسطوانة للطربة اسمهان مسجل عليها اغنية «عليك صلاة الله وسلامه» .. فانا اميل للفن بطبعى واحب صوت اسمهان بالذات .. فجلست افكر ماذا كانت تقول الاغنية ؟ وتذكرت انها كانت تقول وامتى عينى تشوف منظركم يانخلتين فوق الحرمين .. وجلست احكى له عن النخلتين الموجودتين فوق الحرمين .. !! ..

وعندما ذهبت بعد ذلك الى الحج لاول مرة فى حياتى عام ١٩٥٤ واثناء زيارتى الكعبة ضحكت بينى وبين نفسى لاننى تذكرت هذه الحادثة ولم اجد هناك فى الحرمين النخلتين اللتين غنت لهما اسمهان .. !!

وبعد قيام الثورة بحثت عن هذا السائق الذى اكرمنى فى قرية دمرو ولكن دون جدوى . فعلى غير عادتى نسيت اسمه تماما ربما نتيجة الام الدوسنتاريا التى ماجمتنى بعنف يومها .. وهو الوحيد الذى لم ارد جميله .. فقد كنت حريصا على رد الجميل لكل من اكرمنى او مد يد المساعدة لى اثناء الظروف الصعبة التى مرت بى ..

لقد كان هذا السائق الذى قابلته فى قرية دمرو روح مصر فى اصالتها وكرمها وروح العائلة التى بدونها نفقد كل شىء .. انسان قابلته وعاملنى كاننى احد افراد عائلته .. هذه هى مصر .. وهذه هى القيم التى حافظت على شعبنا ..

لذلك فانا افخر واسعد ان اكتب اليوم عن شخصية قابلتها وهو السائق ابن القرية وابن مصر الذى قابلته فى دمرو .. كما كتبت من قبل عن جمال عبد الناصر والملك فيصل .. وعن الشخصيات الاخرى التى قابلتها وساكتب عنها .. ان هذه الشخصية اكدت قيما معينة عندى اعيش عليها ..

ويوم ان نادينا بأن نعود الى قيم القرية لانها قيم مصر واصالة مصر التى حفظتها ابية متوحدة عبر الاف السنين ، خرج البعض ليقول بانها دعوة الى التخلف .

وانتصرت قيم القرية وهب العالم كله تحية لمصر وقيم مصر فى قضية الشاه ..

مصر الايمان ، مصر الاصالة ، مصر السماحة ، مصر الحب ، مصر التى ترفض العيب ..